صورة المثقف واغتراب الذات في رواية سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج

The image of the intellectual and self-alienation in Sonata's account of the ghosts of Jerusalem wassini aradj

هبة عبد العزيز*

تاريخ الإرسال: 2019/08/16	تاريخ القبول:2020/06/29	تاريخ النشر:2020/06/30

الملخص:

لقد هيمنت الشخصية المثقفة في نصوص الرواية الجزائرية المعاصرة، وهي ظاهرة عرفتها الرواية الجزائرية بعد سقوط الايديولوجية الاشتراكية لدى كتاب السبعينات والثمانينات، ومن ثمة تبرز شخصية المثقف في رواية سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج من خلال نموذج الفنانة الفلسطينية مي، وهو نموذج اختاره الراوي ليعبر به عن حالة الضياع المادي والمعنوي، وحالة الصراع الذي يعيشه الفنانون ما بين عنف قابع داخل المدينة التي يعيش فيها وذلك تحت وطأة الموت الأعمى والحتمي ، وما بين حالات من الاغتراب التي تملأ روح الفنان فسرعان ما نجده يمارس دور المتأمل الذي يرصد زيف الواقع ومظاهر العنف في المدينة، والتي هي في الأصل المنتجة لشخصية المثقف حيث تعمل على حقنه بمميزاتها المخصوصة، كما نجد أن الشخصية المثقفة غالبا ما تتكلم بضمير المتكلم، فتنغمس في واقع المدينة إلى حد التشابه بين واقعها والواقع النفسي للشخصية المضطرب بين هاجس البقاء في المدينة ومجابهة عنف الارهاب أو عزلة المنفى واغترابها خارج الوطن، وانطلاقا من ذاك ترصد المداخلة مجموعة الاختيارات التي وظفها الاعرج حسب رؤيته النقدية لتشكيل صورة المثقف داخل رواية سوناتا لأشباح القدس.

المؤلف المرسل: هبة عبد العزيز hiba.abdelazizaaa2012@hotmail.com

* **جامعة البليدة 02 البريد الالكتروني: hiba.abdelazizaaa2012@hotmail.com**

الكلمات المفتاحية: صورة؛ المثقف ؛اغتراب؛ الذات ؛ سوناتا لأشباح القدس؛ واسيني الأعرج.

Abstract:

The intellectual character of the contemporary Algerian novel, a phenomenon known to the Algerian novel after the fall of the socialist ideology in the 1970s and 1980s, has been dominated by the intellectual character of Sonata's ghost of Jerusalem, by Wassini laradj, through the model of the Palestinian artist Mei, The state of physical and moral loss, and the state of conflict experienced by artists between violence within the city where he lives, under the weight of blind and inevitable death, and between cases of alienation that fills the spirit of the artist soon find him playing the role of meditator who monitors the falsity of the In addition, the intellectual personality often speaks with the conscience of the speaker, so that the reality of the city becomes so similar to the reality and psychological reality of the confused personality between the obsession with staying in the city and the confrontation The violence of terrorism or the isolation of exile and alienation outside the country, and from that observation intervention intervention set of choices employed by the lame according to his monetary vision to form the image of the intellectual within the Sonata of the ghosts of Jerusalem.

***keywords**: The image .the intellectual . self-alienation . Sonata's account of the ghosts of Jerusalem .wassini aradj*

.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

مقدمة:

لطالما حضرت شخصية المثقف في الرواية حضورا يكون احيانا قويا مؤثرا، ويكون احيانا أخرى محتشما مهمشا، مما يعكس رؤية الراوي نفسه، ومن ثمة فقد أوردت تعريفات عدة لمفهوم المثقف وهذا راجع الى مجموعة المعايير المعتمدة من قبل كل توجه نقدي، فتولد عن ذلك اشكالية اصطلاحية متمثلة في صعوبة تحديد الحقل المفاهيمي لمصطلح ثقافة أو مثقف خاصة وأن هذين الاشتقاقين لا يخضعان لنطاق أو إطار تعليمي أو سياسي أو اجتماعي واضح المعالم.

إن المثقف في مفهوم ماكس فيبير MAX WEBER هو المفكر المسلح بالبصيرة ، وبمفهوم الافغاني هو "الشخص المتميز عن عامة الناس لأنه يدرك الفوارق الدقيقة الكائنة في ظل الفكرة الواحدة"[1] ويوجد صيت ذائع يعرف المثقف بالثقافة ،أي هو المتخصص بالثقافة الشيء الذي يجرنا نحو الحلقة المفرغة ما بين مثقف وثقافة، وبالمطلق يمكن القول أن المثقف هو ذلك المبدع في مجال من المجالات، أو فن من الفنون، أو هو أحد من الصفوة أو النخبة المتعلمة [2] التي تملك فاعلية على المستوى الاجتماعي، وعليه يتسع مفهوم ليشمل كل من تلقى تعليما في الجامعة، وقد يضيق ليقتصر على فئة المشتغلين بالفكر والابداع.

أما تعريف المثقف في المجتمع العربي فإنه يكتسب خصوصية فائقة، تجمعه فيها الظروف والمقومات حتى نجد أن قارئ الرسالة في القرية مثقفا.

إن مجموع التعريفات السابقة يضعنا أمام "نوعين من المثقفين مثقف عام وأخر متخصص فأما المتخصص فهو الذي تنتمي مهنته الى حقل إنتاج المعرفة والفنون بشكل مباشر، ويدخل ضمن هذا الإطار المفكرون والمبدعون والفنانون والصحفيون وحتى الطلبة.....أما المثقف العام فهو الذي ترتبط مهنته بالإنتاج اليدوي كالعمال والفلاحين " [3].

وانطلاقا من اعتماد الرواية عمل فني ينتجه فرد مبدع، والمجتمع فيها متخيل يحاكي الواقع الخارجي دون مطابقته مطابقة تامة، نحاول فيها دراسة شخصية المثقف، واستخلاص مجموعة الطرق التي استخدمها الروائيون لتصوير شخصية المثقف وبيان تأثيراتها الايديولوجية، ومنه فصورة وشخصية المثقف تنجز وفق حركة الواقع الراهن.

ومنه لم يعد المثقف ذلك الافق الحالم الذي يرى فيه المجتمع نمطا من انماط الانقاذ فقد أصبح بذلك عنصرا مناضلا ضمن نطاقات مختلفة ومتعددة تجمع كل أفراد المجتمع، فيهدف بذلك لتحقيق اكبر قدر من الحرية والكرامة والتوازن المجتمعي، لكن ذلك لا يمنع من بقاء انموذج الشخصية المثقفة كنمط فريد قادر على تحريك حوارات مختلفة ،داخل مستويات المجتمع لغرض خلق انساق ايجابية وتيارات فكرية داخل المجتمع والرواية.

يختلف دور المثقف داخل الرواية باختلاف مواضيعها فهو في الرواية الاصلاحية رجل مواعظ يحمل نبراس الامة وشمعة صلاحها، أما في الرواية الرومانسية فنجده شخصا حالما

تتحكم فيه الأهواء والعواطف، بينما في الرواية الواقعية فيبدو أن شخصية المثقف هي اكثر الشخصيات تقبلا للواقع عاكسة بذلك مجموعة التبعات الايديولوجية والمعرفية لذات الرواية.

يرى الدكتور عبد الله الركيبي اننا " في حاجة ماسة إلى مثقفين أصاليين مجددين وفي الوقت نفسه يكونون أكثر تعبيرا عن هوياتنا وعن واقعنا وعن أمال الأجيال الجديدة، بين خصوصياتنا والمتغيرات التي تحدث في العالم كم حولنا...."[4] ، وانطلاقا من هذا الكلام فإن الركيبي يحمل المثقف مسؤولية أكبر يتعلق الأمر بالتوعية وتعميق الروح الوطنية والدفاع عن الهوية، فإن المثقف مطالب اليوم بأن " يدافع عن المستقبل وعن مصير الاجيال القادمة، فمسؤولية هذا المثقف تتجاوز مهنته إلى التبصير بالواقع والغد .. بحيث يكون هو الحكم، حتى لا تسيطر الأهواء والمصالح الفردية "[5].

بين الثقافة والمثاقفة

لكل انسان مستوى ثقافي وان قل، وهذا ما يضمنه له تكونه وانتمائه الحضاري والفكري، فيرتبط مفهوم الثقافة بمعنيين الأول ذهني يفيد الفطانة والذكاء وسرعة التعلم، والثاني معنى تجريدي، فالرجل يوصف بالثقف إذا كان جيد الحذر في المعركة وسريع الطعن ، ومن ثمة فإن مصطلح الثقافة قد اتحد بالمقابلة بين معنيين ذهني وحسي ، أي المهارة في القتال يقابلها المهارة في الفهم، ومنه فيجب ان لا نفهم الثقافة على أنها اشياء مادية مجردة ، بل كعناصر تجسدها وتحملها مجموعات بشرية عدة، بل تتمثل في جميع مظاهر التعبير الانساني، سواء تعلق الأمر بالفنون أو الآداب أو المعتقدات أو المأكل والمشرب ولعل هذا هو التعريف المشمل الذي حدده علماء الانثربولوجيا الحديثة.

أما مصطلح المثاقفة فيجنح ميلا آخرا فهو يعبر عن أوجه التبادل بين الحضارات البشرية المتعددة فيمثل الثنائية (الأخذ \ العطاء)(**take\keep**) وهي بذلك اتجاه يسعى الى أن يكون وسطا بين الانفتاح المطلق الذي يؤول الى الانصهار في ثقافة الاخر، وبين الانغلاق المطلق الذي يؤول الى الانعزال تماما عن الاخر، وبهذا المعنى تعد المثاقفة رافدا هاما " ترجو كل امة

من خلاله معرف الاخر واستثمار ما لديها من قيم ومعطيات انسانية وحضارية، والى تنمية كيانه الثقافي بشكل خلاق وغير مهلك لمقومات الهوية وثوابتها "[6].

وقد اقتبس الادباء مصطلح مثاقفة من اقلام الانثروبولجيين وعلماء الاجتماع، ولعل اول من استخدم هذا المصطلح هو العالم الامريكي باول **pawell** ، أما عن الانجليز فقد كانوا يستعملونه بدلا عن مصطلح التبادل الثقافي **cultural exchange** وقد آثر الفرنسيين من جهة اخرى مصطلح **des civilisation interpéntration.**

وتنقسم المثاقفة في طرق تحصيلها الى نوعين مثاقفة تلقائية تتأتى كنتاج مجموعة من التلاقحات التاريخية السابقة، أو كنتيجة عن رغبة طرف في اكتشاف واكتساب ثقافة الطرف الاخر، أو عن طريق العلاقات التجارية والاستكشافات الجغرافية، وترتبط عملية المثاقفة في هذا النوع بدرجة التباين الثقافي وظروف الاتصال ومواقف السيطرة والتبعية، أما النوع الثاني فهي المثاقفة المفروضة وقد كانت وليدة الاستعمار والاضطهاد، وهي حصيلة سيطرة الطرف الاقوى عن الضعف.

العلاقة بين الراوي وشخصياته داخل الرواية

لطالما يتناول الكاتب شخصياته معالجا فيها مجموعة الابعاد الجسمية من حيث الطول والقصر الجمال أو القبح، والابعاد الاجتماعية من حيث الغنى والفقر، والابعاد الفكرية من حيث الاتجاه الى التيار المحافظ أو التحرري، وكذلك الجانب النفسي كأن يصف الشخصية وصراعاتها الداخلية من اضطراب وقلق أو اطمئنان.

ومن زاوية اخرى لا يحق للسارد أن يعرض شخصياته عن طريق هذه الصفات أو التعليق عنها ،لأنه بذلك يتدخل في شؤون شخصياته بطريقة مباشرة ويفضح تصرفاتها، فمن الافضل له وصف وتصوير الشخصيات وهي تعمل من خلال منطق الاحداث، بحيث يترك كل شخصية تنمو بطريقة طبيعية ومقنعة، فلا يقع اذن في الكشف عن رؤيته الخاصة للأحداث ويصف ويحكي عن نفسه بدل أن يصف شخصياته، فيترك له المجال لاستعراض معلوماته في موضوع معين حبيب الى نفسه فيقع في المحضور[7].

يقسم السارد شخصياته الى شخصيات شريرة وخيرة، سواء منها الثانوية والرئيسة والتي تحتاج بدورها الى شخصيات مساعدة، ولما كانت القيم لا توجد في الحياة بصورة مطلقة فنه على الكاتب ادراك نسبية كل من الخير والشر، يقول حنا مينا " لقد آثرت الصدق التاريخي والفني على رغابتي الذاتية، على افكاري الايدولوجية ولم أفرض نفسي على ابطالي، لكن لم أدعهم يعيشون في تخبط من لا يفهم حتى دوره الحياتي وفي هذه الامانة يتحركون بحرية بعد أن كان دوري انتقاءهم وتطويرهم في البناء الدرامي" [8] وانطلاقا من كلام حنا مينا ندرك أن موقف الكاتب من شخصياته وجب أن يكون حياديا ولكن في الوقت ذاته عليه أن يأخذ بيد شخصياته، حتى تعبر عن نفسها من خلال الفعل والحوار.

إن حياد الكاتب يعني تخليه عن التدخل بالشرح والتعليق أو الحكم عن الاحداث لأن " ذلك يسلب من الشخصية ارادتها الحرة والفاعلة فتصبح مجرد بوق لأفكار السارد، فيكون بذلك صوت الراوي أعلى من صوت الشخصية" [9]، وبهذا المعنى يصبح الروائي غير محايد على الاطلاق .

نجد أن هذا لا يمنع امكانية حدوث تطابق بين الروائي والشخصية في الرواية خصوصا عندما يلجأ الراوي لاستخدام ضمير المتكلم، فيكون بذلك راويا للأحداث وفي الوقت نفسه يعيش التجربة، أما عند استخدامه ضمير الغائب فيكون الوعي هو وعي الشخصية [10]، ولا شك ان استخدام ضمير المتكلم هو مصدر الراحة للراوي فهو يمنحه شعور البطولية، أي حين يحدث التطابق التام بين الكاتب والشخصية التي تقوم بعملية السرد، والمشاركة في صنع الاحداث والانتقال بها.

أما في السيرة الذاتية فيشترط على الكاتب استخدام ضمير المتكلم ولا يتوقع احدا من الكاتب توجيه افكاره في خطوة مصممة بل يدعها تنساب بطلاقة، فرواية السيرة الذاتية ترفض القواعد المقررة فهي متمردة، غير نمطية، دقيقة وتمتاز بالأمانة.

يرى الدكتور عبد الرحمان منيف أن احدى المشكلات التي تواجه الراوي هي العلاقة المفترضة أو الكامنة بينه وبين شخصياته التي يخلقها، وأن هذه العلاقة من شأنها أن تسقط الرواية أو ترفعها، ويرى كذلك بأن العلاقة بين الشخصية الروائية والروائي ليست علاقة

حب او كراهية، وبأنها ليست قناعا أو عملية اسقاط من خلال الشخصية التي يجب أن تكون حقيقة بمعنى أن تكون قادرة على الفعل ضمن منطقا ومنطق الاحداث[11] .

ونجد بذلك أن الروائي بخلاف المؤرخ، ينفذ الى اعماق الشخصية ويستنطقها ويثريها بالنمو ويؤثث حياتها بعناصر المفاجأة، فهو من يخلقها وكثيرا ما يجعل الشخصية كمحصلة لمجموعة من الصفات والتي قد لا تتواجد في شخص واحد حقيقي وموجود في الواقع، بينما يقدم لنا المؤرخ الشخصية كما هي في الواقع دون التغيير في مكنوناتها، اذا فالصورة الروائية ليست منقولة عن الواقع نقلا حرفيا وانما ترتفع عن الواقع لتصبح معادلا فنيا للشخصية في الواقع.

صورة المثقف في رواية سوناتا لأشباح القدس _كريماتوريوم_

يتميز كل روائي بطريقته الخاصة في رسم شخصياته الروائية، وتبيين وظيفتها في السرد وتحديد الدور المنوط بها، كما أن موقف الكاتب من الرواية وطبيعة فهمة للشخصية يشكل دورا اساسيا في تحديد سبب اختياره لهذه الطريقة أو تلك في بناء روايته، ويؤدي هذا الاختلاف بطبيعة الحال الى تعدد اصناف وحالات هذه الشخصيات، وبالاستناد الى خاصية الثبات أو التغير يمكن تحويل المثقفة الى شخصيات دينامية تمتاز بالتحولات المفاجئة التي تطرأ عليها داخل البنية السردية، ومن خلال الدور الذي تقدمه الشخصيات يجعل منها اما شخصيات ثانوية أو رئيسية[12] .

تظل الشخصية ثابتة لا تتغير طوال السرد، فيكون لها موقف ثابت من الاحداث المحيطة بها، أما اذا كانت الشخصية مثقفة فإن عدم تحريكها دليل على ثبات الافكار التي تتبناها هذه الشخصية من خلال حوادث الرواية، وتصاعد المتن الحكائي.

إن شخصية يوبا في رواية سوناتا لأشباح القدس تبدو ناجزة ومحددة بأبعاد فكرية ونفسية مسبقة فقد ظهرت هذه الشخصية في البداية بصورة اولية مركزة، ثم تبعتها أقوال ومواقف ابدت الصورة الاساسية لشخصية يوبا، وكشفت عن تركيباته الفكرية ووضعه النفسي بعدم تقبله لموت أمه خاصة وأنها كانت تقاوم الموت بالكتابة واسترجاع الذكريات وهذا بعد مرضها بالسرطان آخر ايامها.

توالت أقوال وأفعال يوبا ومواقفه لتجلي الأسس الفكرية التي استند اليها في مواقفه من الصراع السابق ذكره، ومن فالصورة التي ظهر عليها لم تتغير على الرغم من تبدل الحوادث، فظل بذلك مؤمنا بأفكاره مصرا على مواقفه حتى نهاية الرواية "**قيل لي أنها كانت تنتظرني، فقاومت الموت حتى رأتني للمرة الأخيرة، عندما دخلت قادم من دار الاوبرا بعدما انتهيت من أدائي ... عندما تخلت مي عن مقاومة الموت في الحظة الفاصلة بين الاربعاء والخميس بالقلم والكراسة النيلية التي على صدرها، وهي تحاول جاهدة الكتابة ، كانت تبدو نائمة فقط**" [13].

أما الشخصية النامية فهي التي لا يكتمل ظهورها إلا بانتهاء الرواية ويفرض ذلك تسلسل الاحداث وتأثيرها على بنية الشخصية التي تتحول وتتغير تبعا للتغيرات الي تطرأ على الاحداث في السرد، إن شخصية مي هي الشخصية المثقفة الرئيسة في رواية سوناتا لأشباح القدس - كريماتوريوم – وهي شخصية غير مستقرة، تغيرت أفكارها ومواقفها تبعا لتغير الحوادث والتجارب التي عايشتها، من طفولة حالمة في شوارع القدس الى مراهقة جامحة في شوارع نيويورك المدينة التي أعطتها كل شيء، وبالمقابل سلبت منها وطنا وعائلة خاصة وأنها وصلتها عبر رحلة طويلة عبر باخرة تملأها رائحة المنفى والفئران كمت وصفتها .

ونجد أن مواقفها الأساسية قد تغيرت وتضاربت فقد كانت تحلم في البداية بالعودة الى وطنها تقول :" **القدس خبز الله وماؤه، مدينة تكفي للجميع** " [14] ثم سرعان ما نجد أن هذا الحلم قد انجلى تماما بعد رفض السلطات الاسرائيلية طلب دفنها في أرض القدس، فتتبخر أحلامها بالعودة الى ارضها الأولى ولو جثة هامدة تقول:" **أعرف أن القدس لم تعد قدسي**"[15] ، فتتنازل ايديولوجيا عن احلامها ومواقفها.

يغلب على الرواية الجزائرية المعاصرة الاهتمام بالبطل المحوري والذي تدور في فلكه الأحداث والشخصيات الأخرى داخل الرواية، مما يستوجب في حال كون البطل المحوري مثقفا وجود شخصيات ثانوية ومساعدة مثقفة كذلك، يسعى الراوي من خلالها الى القاء المزيد من الضوء على شخصية البطل المحوري، والذي في غالب الأحيان ما نجده قد يتماهى مع شخص الراوي تماهيا شديد .

تقوم رواية كريماتوريوم على شخصية محورية هي شخصية مي والتي تتمحور حولها الأحداث وتدور في فلكها الشخصيات الاخرى، والتي بدت متقزمة في حضورها.

حيث أن اهتمام الراوي بالشخصية الرئيسية لم يتح له الغوص والايغال في أعماق الشخصيات الأخرى سيما شخصية والد مي والتي ضلت تعيش في ظل شخصية مي بالرغم من أهميتها في تكوين ونضج مي، ومن خلا ما سبق نجد أن توزع الشخصيات داخل الرواية من حيث مصادر المعلومات ينقسم إلى :

- شخصيات تقدم المعلومات عن نفسها مباشرة.
- ما تقدمه الشخصية الرئيسية عن الشخصيات الاخرى.
- معلومات ضمنية مستخلصة من سلوك وأفعال الشخصيات [16].

ويشترط في كمية هذه المعلومات المقدمة حول الشخصية أن تؤدي دورها المنوط بها وهو الكشف عن بنية الشخصية ومستواها الفكري وطبيعته النفسية، و" أن تكون هذه المعلومات موضوعة لتلبية حاجة الشخصية إلى إبراز بنيتها وحالتها النفسية " [17] .

علاقة المثقف بالمكان في الرواية

لقد تحول المكان من مجرد فضاء أو وسط يحيط بالأحداث في الرواية التقليدية إلى مفتاح أساسي من يقتحم عالم السرد، كما يحسب له تحرره من اسر الوصف التقليدي وعبر عن حالة الاسقاط التي اتخذها له الراوي والتي تعكس المضامين الفكرية والنفسية للشخصيات التي تعيش داخله.

نجد أن الأعرج لم يقدم المكان في روايته على أنه إطار للأحداث فقط، بل أسقط العالم النفسي للشخصيات على الأمكنة، والتي تلونت بمشاعر الشخصيات وعكست في الوقت ذاته مواقفه وافكاره فقد رسمت الشخصية مي شوارع القدس في مخيلتها، وفي لوحاتها الفنية قبل أن تعبر عنها في كراستها النيلية في أيامها الاخيرة، الشيء الذي جعل صورة مدينة القدس تنطبع داخل ذكريات ابنها يوبا، ولعل هذا ما كان يقصد السارد بأن يرسم صورة القدس لدى المتلقين باستخدامه التكرار[18] في عدة مواضع من الرواية.

من جهة أخرى نلاحظ في بداية المقدمة للرواية وصفا دقيقا لجدار الاندلس في الحي القديم للقدس حيث أن السارد يستغرق الوصف للجدار مظهرا أثره النفسي ومكانته لدى الشخصية مي، ثم يكشف لنا في موضع أخر من الرواية أنها مجرد انتنابات جد مي لابنها يوبا، وأن الجدار قد هدم قديما قبل مولد أمه، حيث يقول : " **ثم جرني وراءه وهو يسرع الخطى نحو حي المغاربة في عمق القدس ليبني في نهاية المسلك وراء حائط البراق مقاما جميلا** [19] .

لقد أجمع النقاد في الرواية على أن للمكان دورا كبيرا في تحديد الخصائص الفكرية والنفسية للشخصية المثقفة، كما أكدوا العلاقة المتبادلة بين المكان والمثقف ومن ذاك نجد أن " **بيت الانسان امتداد لنفسه اذا وصفت البيت فقد وصفت الانسان"** [20] .

إن الملاحظ والباحث في الرواية الجزائرية المعاصرة يجدها تحتوي نمطين للمكان هما المكان المغلق والمكان المفتوح، ولكل منها خصائص ومميزات تعكس الطبيعة الفكرية والنفسية للشخصية التي تعيش داخله ، فغالبا ما يكثر وجود الشخصيات المثقفة في الأماكن المغلقة كالمطاعم والمقاهي والبيت والبار.... أو الأماكن المنعزلة كالجبال والغابات، فتمارس فيه العطالة وتجزية الوقت، وهذا بعد أن وضعها الواقع على هامش الحياة وغربها عن المجتمع والناس، ما يعكس انغلاق الافق أمامها [21]، ومن جانب آخر يظهر ذلك عجزها في القيام بالدور المنوط بها وهو تغيير الحياة إلى الأفضل والأجمل.

وفي الرواية نصادف انعزال يوبا وانغلاقه في قاعة الموسيقى ولعلها من أهم الأماكن التي تلازمها الشخصية المثقفة، فقد اختار يوبا المكان نظرا لعمله فيها، ومن جهة أخرى اعتبرها ملجأ يأويه، كما نلمح أن الرواية تضمر عن مكانين متناقضين وظفهما الأعرج ليكشف عن الخلفية النفسية والفكرية لشخصياته.

كما أن مي ولدت بالقدس المحافظة " **مكان مفتوح** " وعاشت وحشة المنفى القاتلة عبر رحلة بحرية طويلة داخل الباخرة " **مكان مغلق** " استغرق السارد مطولا في وصفها، ثم انتقلت للحياة في أمريكا أي في الفضاء المفتوح مجددا، ولعل تباين الامكنة داخل الرواية وتقلب الشخصيات بين محطاتها يعد كمؤشر يحيل على انزلاق الشخصيات من الانعزال إلى الانفتاح.

يعبر المكان المعزول عن ضيق أفق المثقف ويعكس انحساره وتقوقعه حول نفسه، أما المكان المفتوح فيعبر عن اتساع افق الشخصية وجسارة تطلعاتها وقد عبر السارد عن ذلك حين وصف عبور مي شوارع القدس : " **تدور في الحارات القديمة حارة الشرفة حارة اليهود وحارة المغاربة**" [22] .

التيارات الفكرية والثقافية في الرواية

لا ينفك الروائي الحصيف يؤكد لنا من رواية لأخرى على أن التوجه الأول والأخير هو كيفية العناية بعناصر السرد المختلفة دون أن يبتعد عن الرؤى الفكرية، لكن ما نلاحظه حول رواية سوناتا لأشباح القدس بخلاف كل روايات الأعرج أنها تقودنا إلى السؤال القديم الجديد حول علاقة الثقافة بالأدب، غير أن هذه الرواية لا تخضع لزمن الحكي التقليدي فنجد أنها تعبث عبثا لذيذا في ترتيبها تقديما وتأخيرا، إذ تبدأ بوصايا الأم مي إلى ابنها يوبا الذي انتهى من تنفيذ وصايا أمه وعاد إلى بيته ليتذكرها وينبش ذكرياتها عبر كراستها النيلية، ومن ثم يعود السرد إلى زمنه الحاضر الذي يحكي حكاية الأثر الذي خلفته مي برحيلها.

كما نجد أن هذه الرواية تمتاز بقدرة فائقة على استخدام لغة شاعرية بديعة تتخللها بعض التوثيقات التاريخية، وتمتاز كذلك بحس نقدي مرهف تجاه الفن والموسيقى، كما نجدها مضخمة بمجموعة من الأسئلة حول الوطن والهوية والثقافة، إذ تبدو مي وغيرها من الشخصيات متأرجحة بين الوطن والمنفى بين التفاؤل والتشاؤم وبين التمرد والخضوع، إلا انها تقدم في هذه الرواية سياقات مختلفة أقل ما يقال فيها أنها تثير الدهشة[26].

يذكر يوبا في بداية الرواية تحت عنوان وصايا مي أنه لم ير القدس إلا ثلاث مرات، وسرعان ما يستنتج القارئ أن زيارتيه الأوليتين كانتا عبر خياله فالأولى كانت عندما جره جده من أمه الاندلسي نحو حي المغاربة في القدس، والثانية كانت في ميلانو خلال عزفه السوناتا إذ رأى مي وهي تعبر شوارع القدس وتدور في حاراتها وتصيح : " **وجدتها ... وجدتها عندما تكتشف أن الوان القدس تتجمع كلها في جناحي فراشة ..**" [27] ، وقد كانت الزيارتان في خيال يوبا فقط.

أما المرة الثالثة فقد كانت حقيقية إذ زار القدس محملا بثلاث جرات رخامية مليئة برماد أمه المعجون بنوار البنفسج لينثره فوق أرض الوطن، فترتاح روحها المبدعة الفنانة التي تشعر بالفرح إذا تحدثت عن فراشات القدس "**فتعيش أسعد لحظات حياتها حينما تبتدع لونا جديدا تسميه فراشات القدس لونها الأول الذي يندمج مع اشعاعات الشمس، لونها الأول الذي يندمج مع اشعاعات الشمس وهي تنهض من وراء بحيرة هيدسون أو يدخل في تجاويفها تبحث عن فضائها وألوانها**" [28] .

ثمة في الرواية صورة للقدس وصورة للمنفى إذا تعمل الشخصية مي على تحريض الذاكرة عبر الطرق المختلفة، إلا أن ذلك لا يمنع من التزام الهوية مع الثقافية فيشكلان علاقة وطيدة بالوطن واللغة والانتماء، " إذ يرتبط مفهوم الهوية بالمسالة الثقافية، فيرى بعض علماء السياسة والاجتماع والنقاد في الآداب والفنون أن أزمة الثقافة هي في حقيقة الأمر أزمة الهوية " [23]، فما يجمع العرب مسلمون ومسيحيون ويهود في شوارع القدس هي الثقافة المشتركة، واذا ما رجعنا إلى الرواية لغرض النبش في حياة مي نلاحظ عكس ذلك إذ بمجرد ما غادرت القدس متجهة نحو بلاد أخرى وبعد تأقلمها وكل الظروف أخفت كل ما تحمله من دين وثقافة وطنها الأصيل، تتصارع في صمت مع ذاتها لمواجهة الثقافة الجديدة التي عايشتها، فأصبحت تخرج للسهرات تقول : " **أدخلني كوني بسرعة في عالم الجاز الذي كان يذهله ...يعطيني موعدا في باره المفضل في منهاتن، أو في مطعمه في سوهو وهناك كنا نلتقي نشرب نرقص حتى أخر الليل**" [24] .

حيث أن مي تعرفت على كوني الإيطالي ونست كل من حولها نست حتى يوسف الذي أحبته لدرجة الجنون، وسلكت طريقا آخرا أنساها ماضيها وهويتها وحبها تقول: " **مع الزمن عشقت عاداته .... صرت أشاركه التدخين ... وعلمني كيف أنقر الكأسين**" [25] ، ومن ذاك فشخصية كوني الايطالي ساهمت في تغيير المعايير الثقافية لمي.

إن إصدار شخصيات الرواية يمثل إصدار مجتمع بأكمله، بناء على عتبات الرواية وعناوين الفصول بداية بالفصل الأول **وصايا أمي** وانتهاء بالفصل الاخير **مدونة الحداد**،

مرورا بسرد ما كان في الفصل الثاني **عطش البحر الميت**، حيث تجد مي في الفن حياتها ومهربها بعيدا عن وحشة المنفى مفجرة في ذاك رغباتها المكبوتة وأشواقها الدفينة.

بقي أن نقول أن رواية سوناتا لأشباح القدس تعاملت بحرفية عالية مع الفن والموسيقى ونقل الثقافات مع الصوت والرائحة وكل عناصر الفضاء متلاعبة بالزمن الروائي تقديما وتأخيرا واسترجاعا واستباقا، وترسم الشخصيات بكثير من التفاصيل الغنية الموحية مستخدمة لغة شاعرية قلما تجرحها ذهنية اللغة التوثيقية.

الخاتمة:

من المفيد في ختام هذه المداخلة أن نسجل أهم الملاحظات التي افضت إليها وهي تتمثل في:

- قدمت الرواية الجزائرية المعاصرة شخصيات مثقفة متخصصة في شؤون الثقافة وهي تختلف ما بين الفنان واستاذ الجامعة والصحفي وغيرها...
- يلاحظ الباحث أن هذه الشخصيات قد تمثل الروائيين أنفسهم وتعبر عن أراءهم ومواقفهم لذا يوكل لها المؤلف مهمة سرد الأحداث بضمير المتكلم.
- قدم الروائيون شخصيات مثقفة وقفت مواقف متضاربة من قضايا المجتمع الحضارية، خاصة فما يتعلق بالعلاقة بين الغرب والتراث إما رافضا للتثاقف أو داعيا له .
- إن الشخصيات المثقفة في رواية كريماتوريوم سوناتا لأشباح القدس تدل على اتصاله بالواقع الحياتي وحيثيات مجتمعه، وتأثره بما يدور فيه وبما يعانيه الانسان عموما وقد اختلفت عنايته ببناء الشخصيات بحسب أهميتها، فهو لا يكترث بعددها على قدر ما يكترث على وصفها وتوظيفها بما يخدم هدف الرواية.

الهوامش:

1. أمين الزاوي: صور المثقف في الرواية المغاربية. دار راجعي للنشر. الجزائر. دط. 2009. ص25.
2. يطلق كذلك على النخبة المتعلمة الفاعلة في المجتمع مصطلح الانتلجنسيا intellengansia.
3. عبد الله الركيبي : الهوية بين الثقافة والديموقراطية . دار الكتاب العربي. القبة . الجزائر. دط . 2009 .ص 26.
4. نفسه : ص 16.
5. نفسه : ص 38 .

6. عبد السلام محمد : شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة . دار الحداثة . لبنان . ط1. 1885. ص87.
7. عبد المحسن طه بدر: الروائي والأرض . دار المعارف. مصر. 1889. دط. ص160.
8. حنا مينا : حوارات وأحاديث . دار الفكر. لبنان . دط. 1992 . ص 160 .
9. عبد الفتاح عثمان : بناء الرواية. مكتبة الشباب. مصر. دط. 1982. 108.
10. محمود غنايم : تيار الوعي. دار الفرابي. لبنان. ط2. دت.ص46/45.
11. عبد الفتاح عثمان : مرجع سابق. ص108.
12. حميد حميداني : بنية النص السردي. المركز الثقافي العربي. دمشق. سوريا .دط .دت. ص55.
13. واسيني الاعرج: كريماتوريوم / سوناتا لاشباح القدس . دار الآداب . بيروت. لبنان. ط1. 2009. ص 189.
14. نفسه : ص383.
15. نفسه: ص381.
16. سليمان نبيل: الأدب والايديولجيا. دار الحوار سوريا. ط2 ص131.
17. نفسه: ص132.
18. عدلان رويدي : الرواية وحوار الأنساق الثقافية. قراءة في رواية كريماتوريوم . سوناتا لأشباح القدس .مجلة المخبر جامعة بسكرة . ع10. 2014. ص3.
19. واسيني الأعرج : سوناتا لأشباح القدس. ص 98.
20. محمد رياض وتار: شخصية المثقف في الرواية العربية السورية ص182
21. نفسه . 182.
22. واسيني الاعرج : مرجع سابق: ص09.
23. محمد العربي ولد خليفة : المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية . دط. دت . ص83.
24. واسيني الاعرج : مرجع سابق : 274.
25. نفسه 273.
26. عدلان رويدي : مرجع سابق ص 3.
27. واسيني الاعرج : مرجع سابق ص9.
28. نفسه ص 84.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊